الأرض بوصفها مصدرا للإنتاج، حيث أن الأرض الجيدة
إنتاجها وفيرا، ويترتب على ذلك الكثير من الخدمات:
ون فيها يحصلون على المال، ويعمل العمال فيها بالأجر.
إنتاج يخضع لعملية التبادل والاستهلاك. وكل ذلك يصب في
رة تقدم الحضارة إلى مرحلة لاحقة، أما العامل الثاني فهو
ر الحكومة، حيث يتطلب وجود حكومة قوية لحماية السكان من
أخطار الخارجية، والمحافظة على الإنجاز الحضاري، أما العامل
آخر، فإن زيادة السكان ضرورة لزيادة الإنتاج في وقت لم تكن
هناك معامل أو مصانع أو آلات، وان الزيادة في الأيدي العاملة
تؤدي إلى زيادة الإنتاج، وهذا يؤدي إلى إدامة الحضارة.

اما المرحلة الأخيرة من مراحل الانتقال الحضاري فهي مرحلة
(الدهور = الشيخوخة) عندما تفقد الدولة طاقتها الإبداعية يتسلل
الترف إلى مرافقها الحيوية، ويؤدي ذلك الى انطفاء شعلة الإبداع
فيها والعجز والتقاعس والأفول ثم السقوط، لأن ذلك أمر حتمي؛
فالحضارة بعد أن تستكمل دورة حياتها لا بد أن تسقط، وربما
يتأخر سقوطها إذا لم تتوافر عوامل خارجية أو داخلية، ولكن هي
في حكم الميتة أو المنحلة وآيلة للسقوط.

أن عوامل قيام الحضارة هي نفسها عوامل تدهورها وسقوطها
(العصبية والترف)، فالعصبية أساس قوة القبيلة، ولا تكون الرئاسة

إلا في أهل القوة، والعصبية هدفها الحصول على الملك. وعند ذلك ينتقل الشعب من البداوة إلى التحضر، كما مر بنا سابقا، ولكن تنقلب العصبية ضد الملك وتصبح عاملا من عوامل سقوط الحضارة، لأن صاحب الدولة عندما يحصل على الرئاسة يحاول بعدها التخلص من أقربائه الذين أوصلوه إلى الحكم وقاسموه الملك، لذلك لا يستقر له الملك إلا بالتخلص منهم، ويتحولون إلى أعداء له يتربصون به الأيام، لأنه استغنى عنهم بالموالي وأهل الصنائع[١٦]، ولأن الملك لا يستقيم إلا بالتخلص من أهل العصبية حتى يدخل إلى مرحلة الحضارة والترف.

أما الترف فهو في بداية تكوين الدولة ضروري لزيادة قوتها، لأنه غاية الحضارة والملك به يقاس التطور الحضاري، وقوة الحضارة ولكنه في الوقت نفسه العامل الأساس في سقوطها، لأنه مؤذن بالفساد:

((أن غاية العمران هي الحضارة والترف، وإنه إذا بلغ غايتهُ انقلب إلى الفساد))[١٧].

وإذا حصل الترف في الحضارة، فهذا دليل على إنها بلغت مرحلة الشيخوخة والهرم، لذلك فهو سلاح ذو حدين، يكون هدف الحضارة في بداية تكوينها وغاية الاجتماع الإنساني، وسبب من

أسباب سقوطها عندما يتسلل إليها، لأن سببه الارتقاء في الأحوال الاقتصادية للحاكم والرعية، وهذا يؤدي إلى البذخ والإسراف والابتعاد عن قيم المبادئ وترك خشونة الحياة إلى سهولتها ويؤدي إلى فساد الأخلاق للحاكم والرعية، وهذا يؤدي إلى ضعف الدولة، لأنه يذهب خشونة البداوة، ويضعف العصبية والشجاعة، لأنه مفسدة لبأس الفرد وشكيمة الدولة، ومفسدة للخلق، ودليل على حياة السكون، وتكالب الناس على متاع الدنيا، مما يؤدي إلى الخلاف والتحاسد ويبعدهم عن التعاون والوقوف بوجه الأخطار مما يؤدي إلى المنازعة ونهاية الحضارة، لقد آمن ابن خلدون بالحركة الدورية للتاريخ، وهي حركة انتقال تمر من البداوة إلى الحضارة عبر الدولة، والدولة أو الحضارة عنده تحمل بذور انهيارها منذ نشأتها مما يجعلها محكومة بالاضمحلال والزوال، تاركة المجال هكذا مفتوحا لقيام جماعة بدوية أخرى بتأسيس دولة جديدة تلاقي هي الأخرى المصير نفسه(١٨).

ومن الجدير بالملاحظة أن ابن خلدون أول من استخدم الجدل (الديالكتيك) في التاريخ، لأن قيام الحضارة وسقوطها مبني على الصراع بين (العصبية والترف)، وهما ضدان، الأول يعمل على قيام الحضارة، والثاني يعمل على إسقاطها، أما العصبية التي تعمل على إسقاط الحضارة، فهي تعمل ضد الترف، وهي نقيضه، وهكذا

يسير التاريخ من خلال الصراع بين الفكرة ونقيضها، وتنشأ الحضارات المتتالية التي تشكل التاريخ.

٣. عمر الحضارة وأطوار الدولة:

الحضارة كما مر بنا سابقاً وحدة البناء الأساسية في التاريخ، والحضارة تقوم على رقعة أرض معينة تسمى (الدولة)، (الحضارات تدور على الدول)[١٩]، كما ربط ابن خلدون عمر الدولة بعمر الشخص، حين عدّ العمر الطبيعي للأشخاص لا يتجاوز مئة وعشرين سنة[٢٠]، ويختلف العمر من جيل لآخر، قد يكون مئة أو تسعين أو ثمانين أو سبعين أو ستين، أما الدول فأعمارها لا تعدو عمر ثلاثة أجيال[٢١] والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين سنة، الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته[٢٢]، (متوسط عمر الجيل الواحد).

أن حياة الدولة عندهُ ترتبط بتطور أحوال الأسرة الحاكمة، في انتقالها من حالة البداوة إلى التحضر، ومن قوة العصبية إلى تغلب الترف على طبائع أهلها، وتفككها بسبب ذلك، وقد قدر المدة في انتقال الأسرة أو الدولة من حالة القوة المتمثلة في المرحلة الأولى من الحضارة (البداوة)، إلى حالة الضعف أو الوهن في نهاية

الحلة الثالثة (التدهور)، بأعمار ثلاثة أجيال، وكما مر ذكره. كل

عمره اربعون سنة وهي كالآتي(٣٣):

جيل الأول: ما زالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها، من

ثل العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال

صورة العصبية محفوظة فيهم، فحدهم مرهف وجانبهم

هوب والناس لهم مغلوبون.

جيل الثاني: تتحول حالهم بالملك والترف من البداوة إلى

ضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في

مجد إلى الانفراد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز

إستطالة إلى ذل الاستكانة، فتنكسر صورة العصبية بعض الشيء،

وتنس منهم المهانة والخضوع.

جيل الثالث: ينسى عهد البداوة والخشونة، كأن لم تكن، ويفقد

داوة الفرد والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم

الترف غايته بما يبتغونه من القيم، ونضارة العيش: فيصيرون

عيالاً على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة

عنهم، وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة

والمطالبة، فإذا جاء المطالب لهم لم يُقاوموا مدافعته.

أن عمر الدولة الذي حدده ابن خلدون، لا يقصد به الدولة كما

نفهمها الآن، إنما سلطان الأسرة الحاكمة، لذلك فإن زوال سلطان